

كلمة قرس الأب العام مالك أبو طانوس

إحتفالية و. كمال الحاج

جامعة سيدة اللويزة، ٢٠١٤/٣/٢٩

صاحب الغبطة والنيافة الكلي الطوبى راعي هذه الاحتفالية،
أصحاب المعالي والسعادة والسيادة والمقامات الدينيّة والاجتماعية،
أيها الحفل الكريم،

في هذه الليلة ونحن نستذكر الكبير كمال الحاج في غيابه الثامن والثلاثين، أريد أن نسمعه يحكي لنا.
كمال الحاج اليوم إن حكى - ما عساه يقول كلمات ما بعد الكلمات.
المعلم الأول والإلهي قال كلمات كثيرة، كلمات نور وحياء حفظها إنجيلنا وأصبحت لنا قاعدة حياة
ووصايا عيش. المعلم اللبناني الكبير، ما عساه يقول؟

أولاً: لكم صاحب الغبطة والنيافة.

سنة ١٩٧٣ في حزيران أصدر كمال الحاج كتابه: بكركي صخرة الخلاص.

مما كتب فيه:

«لبنان: رقعة أرضه ولا أنبع، ولا أخضر، ولا أفكه. حدودها صغيرة، ولكنها عزيزة الجانب. تلك
أعجوبة لبنان. لقد رسمت أرضه يدُ الله... الطامعون بما يا ما أكثرهم، لكن بؤبؤ السماء يرهاها!
لبنان: تاريخه العريق ولا أزحم بالتعالي. هياكله ولا أقدس. قوامه الحرية. عماده المحبة. هذا هو لبنان!
شاب على أنه الشيخ في سكناته. شيخ على أنه الشاب في وثباته. في اللهب ولم يحترق. لبنان أعجوبة».
ومجد هذا اللبنا أعطي لسيد بكركي حافظ هذه المقدسات. هو السيد ما فرط يوماً بهذه الأمانة.
(تجدد الإشارة هنا إلى الاحترام الكبير الذي كان لدى كمال الحاج للبطريرك المعوشي).

فلبنان التاريخ هو في تاريخ لبنان. وتحت سقف بكركي أقدس هذا التاريخ الذي لنا. «حاكه الياس
الحويك، ثم عرضة أنطوان عريضه، وثم عيشه بولس المعوشي».

ماذا سيفعل اليوم مار بشاره الراعي بلبنان وله؟ أسمح لنفسني أن أكمل الكلام بسياق لغة كمال الحاج، فأقول: الراعي لا شك سيرعاه بشارةً سارةً مزدهرةً مرتفعةً. فَنعمَ الرعاية والراعي! ونعمَ لبنان! شكراً غبطة البطريرك الراعي لرعايتكم ليس فقط إحتفالية كمال الحاج، إنما لرعايتكم كلَّ مسيحية هذا الوطن ولا بل هذا الشرق.

ثانياً: كلمة ثانية يقولها كمال الحاج رجل الإيمان وليس فقط الفيلسوف لبني قومه المسيحيين؟

«لا مسيحية بدون الوطن. لا مسيحية إلا في الوطن. لا مسيحية إلا من الوطن.»

المسيح هو اليوم في قلب الواقع. في صميم الحياة - في قلب الوطن - يرينا السماء في واقع الأرض. لا قيمة لدين غير ممارس في الدنيا، ولا قيمة لدنيا غير دائرة على أوامر الدين. العالم هو الطريق إلى مملكة المسيح.

من لبنان ينطلق الحاج إلى المسيح. «بالمسيح يعود الحاج إلى لبنان»

يتألم ويحذر كمال الحاج قائلاً: «إذا اندحرت المسيحية في لبنان فأن لبنان سيندحر معها.»

ثالثاً: كلمة كمال الحاج العلماني في الظاهر لكن الكاهن في القلب.

«ليتني تكهنت!»

«حظي شاء مني أن أزاول كهنوت الزواج. وهذا ما يُعزيني. إلا أنني راغب في الكهنوت الحق، أو

في شيء منه، ولو آخر عمري...»

هكذا يكتب في ختام محاضرة ألقاها في ٢٥ شباط ١٩٧٣. هاتان الكلمتان ليستا أبداً نداء حسرة

وندم على زواجه وأسرته. إنهما، في ظني، فعل احترام عميق وجيل لكرامة الكهنوت.

إذا كان الكاهن رجل الله ورجل الروح، والمبشّر بقيم الإنجيل والسماء، فكمال الحاج كاهنٌ من دون

سيامة. وإذا كان الكاهن شاهداً أرضياً للنور السماوي، فكمال الحاج كاهنٌ بامتياز. وإذا كان الكاهن

رجل المذبح يقدم عليه قربان الخلاص، ورجل المنبر يعتليه لينطق بكلام الحياة، فكمال الحاج كاهن في

العمق.

لو أنّ الكهنوت يُمنَح بعد الممات كما الأوسمة التكريميّة، فأني أوّل من يطالب به لهذا المشغوف بالمسيح، لهذا الذي كانَ كاهناً أكثر من أيّ كاهن.

بصراحة، لستُ مندهشاً أبداً بهذا «الكمال الحاج»، الحاجّ على دروب الكمال والمشتهي، بعد عرش الفلسفة، كرسيّ المذبح. فأنا، إذ أقرأ نداءه هذا، أستحضر صورة أستاذه في جامعة ميونيخ، الفيلسوف الألمانيّ فولفغانغ شتيغمولر (Wolfgang Stegmüller)، وصورة الطبيب الفرنسيّ مارك أوريزون (Marc Oraison). كلاهما الأول بعد الفلسفة والثاني بعد الطب، طمحا إلى الكهنوت وحصولاً عليه. لكن كم كان قاسياً ذاك الموت الذي حرّم كمال الحاج هذه الغبطة، مستبدلاً حلم الكهنوت لديه بنعمة الاستشهاد!

كمال الحاج باح في الحقبة الأخيرة من حياته، برغبة كبيرة بإنهاء حياته مترهباً في دير الكريم. فهو الذي كان على صداقة حميمة مع كثيرين من آباء الكريم، وهو الذي شاء تعليم أولاده في مدرسة الكريم (مدرسة الرسل)، وهو الذي درّس الفلسفة وحاضر في قاعات الكريم، وهو الذي نشر أهمّ كتاباته في مطابع الكريم، نعتبه نحن الكُرميين، إبناً أصيلاً بالشوق للكريم.

ويسعدني (أنا شخصياً) اليوم كرئيس عام لجمعيّة الكريم وتكاملاً مع أخويّ الرئيسين العامين السابقين الأب خليل علوان والأب إيلي ماضي أن أوقع على ميثاق بيت الفكر - أسسيّة كمال الحاج، ويكون الكريم الحاضر لإرث كمال الحاج الفكري وقفاً كُرميًّا بامتياز.

شكراً لورثة كمال الحاج - السيدة ماغي الحاج، الدكتور يوسف، الدكتور سامي، الأعزاء طوني وبسام وجانين، لقد أغنيتم الكريم بكتر الحاج الثمين.

رابعاً: كلمة رابعة لكمال الحاج مريمية.

مرة تلو الأخرى حاضر كمال الحاج شاهداً لوالدة الإله، وطلب شفاعتها بالحاج، وتلا وردّيّتها يومياً. وفي السنين الأخيرة من حياته تزوجت المسبحة أصابع يده اليميني. حمل العذراء في قلبه، وأعطاه الكثير من عصارة فكره وقلمه. عرفها لا عقائدياً فحسب، بل حياتياً، وبكل جوارح عاطفته الداخليّة.

في رؤية كمال الحاج، العذراء تعهدت لبنان منذ أن كان. هي في كلّ زاوية منه، على ما جاء في كلام سليمان: «هلمّي معي من لبنان» (نشيد الأناشيد ٨/٤). ويأتي لبنان في طليعة بلدان العالم من حيث التعبّد لمريم. بدون العذراء لا ونام للبنان ولا سلام.

يسرني جداً، أيها السادة، أن تكون فلسفة كمال الحاج إرث عائلة الحاج والوقف الفكري الكرّيمي في أحضان الرهبنة المريميّة المارونيّة، وأن تكون جامعة مريم سيدة اللويزة المنبر الفكري لتراث كمال الحاج. شكراً لقدس الأباتي بطرس طريبه الرئيس العام للرهبانية المارونية المريمية، ولحضرة الأب وليد موسى رئيس جامعة سيدة اللويزة ولسائر الآباء الذين تعاونوا معنا...

خامساً: كلمات كمال الحاج كثيرة بعدد رمل البحر كثرتها الربّ بقلمه لتكون شهادة حياة إيمان، وربّما ظنّ الذين قطعوا رأسه سنة ١٩٧٦ أنّه سيصمت. شكراً أيضاً اليوم بعد ٣٨ سنة لأربع سمحوا لهذه الكلمات أن تجتمع في ١٥ مجلداً وحوالي تسعة آلاف صفحة وحوالي مليونين وسبعماية ألف كلمة.

١. شكراً لمؤسسة جورج افرام،

٢. شكراً لمعالى الأستاذ ميشال إدّه، وكلاهما عدا سخائهما، هما على شغف وحبّ لفكر لبناني عميق!

٣. شكراً ليوסף الذي سهر على مدى ثماني سنوات في مطبعة الكريم، وثقّ كلّ الكتابات والمخطوطات، مهّد لكلّ كتاب وصحّح كلّ الطباعات.

٤. شكراً للأب شربل مهنا مدير مطابع الكريم الذي أشرف وعمل ليل نهار في طباعة هذه المجموعة الكاملة.

يقول الرئيس الروسي الأسبق غورباتشيف:

«إذا مررت في هذه الحياة ولم تكتب ولو كتاباً، أو تبني ولو حائطاً، أو تنجب ولو ولداً، اسأل نفسك إن كنت حقاً عشت!».

كمال الحاج عاش الحياة أضعافاً. لقد كتب ٩٠٠٠ صفحة وبنى البشر والحجر وبارك الله أبناءه الخمسة والأحفاد.

عاش كمال الحاج. عشتهم جميعاً. عاش لبنان.